كلمة الدكتور مازن مبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

السيّد الأستاذ رئيس المجمع

السادة العلماء أعضاء المجمع

أيها الحفل الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. والشكر للأستاذ الدكتور شاكر الفحام على كلمته الترحيبية الجميلة، وللزميل الصديق الأستاذ الدكتور محمود السيد على كلمته الوافية الوفية. وأجزل الشكر للسادة المجمعيين الذي أولوني ثقتهم وانتخبوني لأكون واحدًا منهم، ولست صاحب مزيَّة فاقت، ولكنها رغبة إخوان كرام لا أقوى على ردّها، أرادوا ألاّ يتركوني لنفسي عاكفًا على ما تدعوني إليه من خاصّة عملي، وشاؤوا أن أحظى بشرف الصحبة ونبل الرسالة وخدمة العربية، أشاركهم عبء العمل بها ولها، وأتحمل معهم ما يتحمّلون في سبيل حماية العربية وتعزيز مكانتها.

أيها السادة..

لست أكتم أن انضمامي إلى المجمع أمر لم أكن أنتظره بعد أن مضى من العمر أكثره، ووهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا، على أني أرجو أن أكون عند حسن الظن، وأن أكون كذلك النوع من النخل الطيّب، كلما تقدّم به العمر كان أنضج ثمرًا وأحلى تمرًا، وأرجو الله أن يكون العطاء فيما هو آت خيرًا منه فيما

فات، والله المستعان.

وبعد، فقد قضت تقاليد المجمع أن يتحدث الوافد الجديد عن زميله الراحل، وإني أستأذنكم أن تسمحوا لي بثلاث كلمات:

الأولى: أنا والمجمع، **والثانية**: آمال في المجمع، **والثالثة**: عمّن حللت محّله في المجمع.

أما دخولي المجمع فتعود الذاكرة بي إحدى وسبعين سنة لأرى الطفل ابن الخامسة يلحق بأبيه الشيخ إلى المجمع، فقد سمع أمه في البيت تجيب من سأل عن أبيه أنّه في المجمع، فانسلّ في غفلة من أمه واجتاز حيّ الكلاّسة مارًّا بجوار المسجد الأموي وضريح صلاح الدين حتى بلغ المجمع، وهو في باب البريد من دمشق القديمة على بعد أمتار من بيته، ووقف عند بابه الكبير وأغرته البركة الواسعة في باحة المجمع فدخل وراح يركض حولها وموسيقا القبقاب تعلن وجوده، وفُتح باب غرفة على يسار الداخل إلى المجمع، وأطل رجل ضخم الجسم كبير الرأس، أحمر الوجه يضع على عينيه نظارة ذهبية صغيرة وسأل الحاجب عن الطفل فأجابه: هو ابن الشيخ عبد القادر المبارك، فتبسم ونادى الطفل أنْ أقبِل، ولم يشعر الطفل بوحشة، فلطالما رأى الرجل يجلس في البيت مع أبيه، فأقبل نحو الأستاذ الرئيس – وهو لقب الأستاذ كرد علي الرئيس الأول لهذا المجمع – وحمل الأستاذ الطفل بكلتا يديه وقبّله، ثم دخل به قاعة المجلس ووقفه على منصّة مستديرة عليها غطاء مخمليّ أخضر وقدّمه للحاضرين. يذكر الطفل أنه رأى حول المنصة ثلاث عمائم بيضاء عرف فيما بعد أن الأولى للشيخ بهجة البيطار والثانية للشيخ عبد القادر المغربي والثالثة لوالده.. وعلى المنصة طربوش لشاب ارتجل في الطفل بيتًا من الشعر أنشده بصوت حادّ رفيع، عرف فيما بعد أنه صوت الأستاذ عز الدين التنوخي. وأسرع والد الطفل فنادى الحاجب وطلب إليه

مرافقة الطفل إلى البيت.

تلك كانت زيارتي الأولى للمجمع منذ إحدى وسبعين سنة، وأما الزيارة الثانية فكانت في سنة أربعين أو إحدى وأربعين وتسعمئة وألف، حين انتظرت والدي في إحدى غرف المجمع، حيث كانت لجنة تعريب مصطلحات القوات المسلّحة تعقد اجتماعًا لها حضره ثلاثة من المدنيين واثنان بثياب عسكرية، ما زالت صورهم وأسماء بعضهم في الذاكرة، ومازال العجب يملأ نفسي من آلية عملهم في التعريب، ولذلك حديث يطول، ولكني أذكر للتاريخ أن تلك اللجنة كانت أول لجنة عملت في تعريب الإيعازات العسكرية، والألقاب والرتب وأسماء قطع السلاح، وأذكر أنني كنت أقلّب بعد سنة أو سنتين أوراق معجم صغير، أوراقه ملوّنة هو معجم المصطلحات العسكرية، وهو في ظني المعجم الذي نقل إلى العراق حين لجأ إليه الذين فرّوا من الحكم الفرنسي، من أمثال الأستاذ عز الدين التنوخي وسعيد حيدر وأحمد قدري، ولعل ذلك هو الذي سرّع بتعريب المصطلحات العسكرية في العراق فكان القطر العربي الثاني بعد الشام في تعريبها. ولعله أيضًا كان النواة الأولى للمعجم العسكري العربي الضخم الذي ظهر فيما بعد!

ولم تنقطع صلتي بالمجمع منذ ذلك التاريخ، فلقد كنت في زيارات دائمة للمجمع، أزور كل من فيه من رؤسائه وأمنائه وموظفيه، وأطلع على كل ما يصدر عنه، ولو قلت إن في الذاكرة جزءًا كبيرًا من تاريخ المجمع لما كنت مبالغًا.

لقد كنت لتردّدي الدائم على المجمع، ولصلتي بأعضائه وموظفيه، ولكثرة ما أحضر مجالس الذين يزورون والدي من أعضائه ويزورهم، على صلة بالكثير من أخباره وما يدور في جلساته، ولكم كنت أشعر بالجوّ المريح الذي كان يعيش فيه المجمعيون القدماء، لما كان بينهم من صداقة وزمالة صادقة، ولما كان بينهم من

ألفة وتعاون، ولست أنسى أن بعض المعكِّرات وبعض الجفاء كان يقع بين بعض الأعضاء، ولكن ذلك لم يكن ليعوق عملهم المجمعي، أو يحول دون العمل الجادّ في أداء رسالة المجمع.

وأقول اليوم للطاعنين نيابة عنكم، إن لمجمعكم هذا فضلاً كبيرًا يجب أن يذكر ويجب أن يشكر:

إنه أول مجمع أنشئ في الوطن العربي، وإنه سبق المجمع الثاني بعده بثلاث عشرة سنة.

وإن مجلته أطول المجلات الجادّة عمرًا وأكثرها استمرارًا، ولم ينقطع صدورها إلا مدة قصيرة لظروف طارئة أيام الاستعمار الفرنسي.

وإن جهود أعضائه في التعريب بدأت منذ شكل الحاكم العسكري في العهد الفيصلي لجنة من أعضائه للتعريب، فعرّبت لغة الدواوين ولغة التعليم وألبست الألسنة والأقلام ثوب العربية، ونزعت عنهما ثوب اللغة التركية.

وكان مجمعكم يراقب لغة الدواوين، ويراجع ما يوضع بين أيدي الطلاب من كتب العربية، حتى استطاع بجهود أعضائه وجهود المخلصين من المسؤولين أن يخلع ثوب التتريك الذي لبسناه حينًا من الدهر، وأن يلبسنا ثوب العربية المشرق. وقد أدرك جيلنا على لسان العامة بعض ما بقي من آثار الثوب القديم.

وليس عمل المجمع اليوم إلا استمرارًا لذلك العمل العربي المثمر، ومازالت مجلّتكم مستمرة، ومازالت لجِانُكم تعمل على توحيد المصطلحات العلمية في الجامعات، وتعمل على إدخال المصطلحات في الحاسوب، يقوم بذلك كله رجال منكم يعملون في صمت وهدوء، لا يعيب عملهم إلا أنه بعيد عن الإعلام في عصر جدير اليوم أن يسمَّى عصر الإعلام.

وحبذا لو كان في مجمعكم اليوم مكتب للإعلام، يكفيه موظف واحد يصدر نشرة إعلامية صغيرة تصدر زمن صدور المجلة، أربع مرات في السنة يثبت فيها عنوانات ما يحويه العدد الجديد من البحوث، واللجان، ويذكر فيها آراء المجمعيين وفتاواهم، ثم يرسل بها إلى الصحف والقنوات التَّلْفَزِية، إذًا لعرف الناس عامة والطاعنون خاصة ما يقوم به مجمعكم، ولبقي المجمع على ألسن الناس حيًّا مذكورًا ومشكورًا.

على أنني إذا رددت على الناقمين والساخطين والطاعنين فليس ذلك مبالاة مني بهم، لأني على يقين بأن من رضي عن نفسه كثر الساخطون عليه، فإذا بلغ جهدنا مبلغ الرضا من ضمائرنا وأنفسنا في ضوء الظروف المتاحة، فليقل بعد ذلك من شاء ما شاء.

وأما الأمل في المجمع، فمن حقي وأنا اليوم على عتبة مجمعكم أن أعبّر لكم عمّا في نفسي من آمال مجمعية، يشدّني إليها حبّ للعربية غير محدود، حب العربية أشربته روحي وخالط عقلي وقلبي، وسرى في دمي حتى بات غريزة من غرائزي لا أنفك عنها ولا أستطيع، ولا تنفك عني، أعمل بوحي منها شئت أم أبيت، ونجحت أم أخفقت، وقُرّبت أم أبعدت، وأكرمت أم عوديت، وأنتم أيها المجمعيون – على اختلاف اختصاصاتكم – أهل العربية وأنصارها، العارفون منزلتها، المدركون خطرها، الذائدون عن حماها، الداعون إلى رفعتها.. هكذا وعدتم، وأعد اليوم معكم، وهكذا عاهدتم، وأعاهد اليوم معكم ﴿إن العهد كان مسؤولاً﴾، وما عرفتُ العربية في حاجة على الغُيُر من أبنائها كما عرفتها اليوم، ولا رأيت حصونها تغزى ولا قلاعها تهاجم كما رأيتها اليوم، وأنتم فرسان حصونها وجنود قلاعها، ومن حقي وقد ضممتوني إليكم وأدخلتموني حصنكم، وألبسني

السيد رئيس الجمهورية مسؤولية لغوية حين أصدر مشكورًا مرسوم تعييني عضوًا في مجمعكم، أن أطالب ألاّ يكون فرسان الحصن بلا خيول، وألا يكون جنود القلعة بلا سلاح، من حقي ألا أُترك في معركة اللغة، وهي اليوم من أشرس المعارك وأخطرها، بلا قوة يمدّني بها بعد الله من ألبسني مسؤوليتها وكلفني القيام بها.

إن رسالة المجمع أيها السادة – وأنتم أعلم بها – رسالة خطيرة لا تقل في نظر الواعين عن رسالة وزارة الدفاع، هذه تدافع عن الأرض وعن الوطن الماديّ، والمجمع يدافع عن الوطن الروحيّ وعن عماد الوحدة القومية في اللسان والفكر والثقافة.

وإذا كنت أترك الحديث عن رسالة المجمع اللغوية، التي تحدث عنها الكثيرون في المجمع وغير المجمع، فإني ألخص ذلك كلَّه بالقول إن الأمل الكبير المعقود على مجمعكم، وإن أهم ما يقوم به هو أن يرسم للدولة سياستها اللغوية وأن يكون هو المسؤول عن تنفيذ تلك السياسة اللغوية، وذلك بأن يكون له من القانون سلطة، يستطيع معها أن يفرض سياسته اللغوية على التعليم وعلى التربية وعلى الثقافة وعلى الإعلام، وأن يكون له حق الرعاية اللغوية والرقابة على المؤسسات العامة والخاصة، وإلاّ بقيت العربية قابعة في القاعات الدراسية في المدارس والجامعات، وبقيت توجيهات المجمع وقراراته حبيسة المكاتب، وبقيت اللغة – وهي هوية الأمة وعنوان كرامتها – تتلاعب بها الألسنة والأقلام ويتقاذف الآراءَ بها غير المختصين والجاهلون وذوو الأغراض والغايات..!

إني أناشد السيد رئيس الجمهورية، وهو الذي يمتاز بالوعي والثقافة والحكمة، وقد حمّلني وحمّل مجمعكم رسالة نرجو ألاّ ننوء بعبئها، أن يكون صاحب الفضل في إصدار مرسوم حماية اللغة العربية وجعل المجمع المرجعَ في كل ما يتصل بقضايا اللغة وشؤونها.

أيها السادة..

إن المشكلة في عجزنا لا في عجز لغتنا، وإن الأزمة في الوعي اللغوي والقومي والإسلامي لا في اللغة، وإن القصور منا وفينا وليس في لغتنا. والتاريخ يثبت أن العربية لم تضعف إلا يوم ضعف الناطقون بها، ولم تنحسر عن مسرح الحضارة الإنسانية، إلا يوم انحسر العرب وخبا نورهم ودلكت شمسهم. وما من عاقل في العالم ولا عالم من علماء النفس والاجتماع واللغة، إلا أعلن أن اللغة القومية هي هويّة الأمة ورمز سيادتها، ولا يهمل قضايا اللغة العربية إلاّ جاهل أو شعوبي.

إن الفكر الأصيل - واللغة عنوان الأصالة ومظهرها - لا يجوز أن يخضع شموخه وتنحني هامته، بدعوى السياسة الاقتصادية أو تجارة السياحة أو حاجة السوق، فكل ذلك حاجات موقتة وسياسات عابرة، وأما اللغة فهي الخالدة خلود الأمة والباقية بقاء الناطقين بها.

ولعل المسؤولين من مجمعيين وغير مجمعيين يولون اللغة ما تستحق من عناية، ويشكلون المجلس القومي الأعلى للغة العربية، يكون مركزه مجمع اللغة العربية، ويضمّ ممثلين عن وزارات التعليم العالي والتربية والثقافة والإعلام، ليشرف على السياسة اللغوية في الدولة، وينسّق في الشأن اللغوي بين تلك الوزارات ليكون لها من اللغة القومية موقف واحد.

وأختم كلمتي بالحديث عن الزميل الراحل الأستاذ عاصم البيطار رحمة الله عليه.

أيها السادة..

لن أحدثكم عن الأستاذ عاصم البيطار المجمعي، فلقد مرّ بالمجمع بأخرة من حياته، ما دخل حتى رحل، وما سلّم حتى ودّع، ولقد كان من شواهد النحو شاهد، طالما كان موضوع نقاش بيني وبين عاصم، وكم تذاكرنا أوجه إعرابه وهو

قولهم «كأنك بالدنيا لم تكن» يريدون به التعبير عن سرعة انقضاء الحياة الدنيا، ولقد مضى رحمه الله وكأنه بالمجمع لم يكن إذ مرّ فيه مرور النسمة العابرة. وكم تمنيت لو طال عمره فيه وكان اليوم مكاني بينكم وكنت مكانه، لقد علّمني بموته معنىً من معاني قوله ﷺ: «يأتي على أمتي زمان يمر فيه أحدكم بقبر صاحبه فيقول: يا ليتني كنت مكانك». لقد كان كالنجم بدا فَعَلا فسطع ثم هوى واختفى، ولكن علمه وفضله ومآثره لم تختف، بل مازالت في كتابه المسطور وعلمه المنشور. ولقد عرفتم مراحل حياته وعرفتم الكثير من صفاته وعرفتم آثاره العلمية، في طلابه وفي كتبه المنشورة تأليفًا وتحقيقًا، فلقد فصّل الحديث عن ذلك كله السادة الذين استقبلوه في المجمع، والسادة الذين شاركوا في تأبينه، وليس الزمن بين حفلي استقباله وتأبينه بطويل، ولكن الحزن عليه طويل، وكل ذلك منشور في عددين من أعداد مجلتكم وما صدورهما عنا ببعيد.

وإني أستأذنكم أن أستبدل بالحديث المكرَّر عن علمه، نشرَ صفحة من حياة عاصم البيطار الإنسان، وهي صفحة استمرّت حياتنا معًا في إنشائها ستًا وخمسين سنة، صحبته فيها منذ عرفته أول يوم على باب دار المعلمين العليا في المبنى القديم بجامعة دمشق، حيث وقفنا ينتظر كل منّا دوره للمثول أمام اللجنة الفاحصة. وبقيت برفقته منذ عرفته في ذلك اليوم إلى أن فارقنا فشيّعته، ست وخمسون سنة ما افترق أحدنا عن الآخر أسبوعًا واحدًا إذا كنا في بلد واحد، ولقد صحبته في حلّه وترحاله، أقمنا معًا وسكنّا معًا وسافرنا معًا إلى محافظات القطر وقراه، وإلى تركيا وإلى المملكة العربية السعودية. وعرفته زميلاً طالبًا وزميلاً معلمًا، وصاحبًا وأخًا صديقًا، عرفته في رضاه حين يرضى، وفي غضبه حين يغضب، وفي جدّه وفي مرحه وفي طربه حين يطرب، فما أخرجه الغضب عن حلمه وما أخرجه

الطرب عن وقاره، إنه هو هو في جميع حالاته إيمانًا بربه وصفاء في قلبه، ولقد وقفت على محمود مذهبه وعرفت جميل خلقه، ورأيته يغيث الملهوف ويعين الضعيف ويكرم الضيف.

ولم يك أكثر الفتيان مالاً   ولكن كان أرحبهم ذراعًا

قبس من أبيه الشيخ الجليل تدينًّا صادقًا وحبًّا للعربية واستقامة في السلوك، لم أسمع منه في الصحبة التي استمرت نيِّفًا وخمسين سنة كلمة تؤذيني، ولم أر منه سلوكًا يؤخذ عليه. كان يعرف للمجالس حقوقها من توقير الحاضرين ومعرفة أقدار الناس والمحاورة بلطف وإيناس، دون أن ينسى توجيه الحديث إلى ما ينبغي توجيهُه إليه، ليصل المجلس إلى غرضه ويحقق الغاية منه.

أيها السادة..

لو عرفتم الأستاذ البيطار كما عرفته لعرفتم أيّ خسارة حلّت بفقده، إنه الصديق الذي تستطيع أن تملأ كفك ثقة به، وأن تطويَ نفسك على حبه، وأن ترى فيه ذاتك إذا حاورته، وعقلك إذا سألته، وملاذك إذا حَزَبَك أمر، ونفسك إذا استكتمته السرّ، والعضد الذي يُشدّ به الأزر.

كان كهلاً فتيًا، وكانت همته تطلّ من وراء عمره، فإذا هي شابّة فتيّة في جسم رجل كهل.

كان رحمه الله يحب الناس كلَّ الناس، ويحب العلم حب مطالعة ودراسة وتتبّع، وكانت لنا في ذلك جلسات تأخذ الجلسة منا يومًا من صباحه الباكر إلى مسائه المتأخر – وقد أتى علينا زمن كنا ننهي كل يوم من أيامه كتابًا، نقرأ نثرًا شعرًا نحوًا لغة معجمًا، وكنت إذا تعبت أو مَلِلت يلهيني عن الانصراف حتى أعود إلى همتي أو تعود إليَّ فنعود إلى القراءة.

وكنا في جلساتنا نتذاكر فيما كتبناه، يعرض عليّ ما كتبه، وأعرض عليه ما كتبت، ويستمع كل منا إلى ملاحظات صاحبه، ما شعر أحدنا في لحظة من اللحظات بتعالٍ أو استعلاء، بل كانت تلك الجلسات وتلك المذاكرات من أحلى ما اجتمعنا عليه واستمتعنا به، ولعل ذلك كان شيئًا مما ورثناه كلانا عن أبوينا الشيخين المجمعييّن، فلقد أورثانا حلاوة الصحبة، وسرّ الألفة بين الزملاء والأصدقاء، وأورثانا حبّ الناس كما أورثانا حبّ الله وحبّ العربية.

ولقد كانت العربية من أكبر هموم أخي عاصم، وطالما بثّ إليّ الشكوى وأظهر التألم مما وصلت إليه حال اللغة في المجتمع عامة، وفي المدارس والجامعات خاصة.

لقد كنا نرى، عاصم وأنا، أن أصدق أنواع الوطنية أن يتقن المرء اختصاصه لينفع به مجتمعه، وكنا نرى أن نشر الوعي اللغوي رسالة مقدّسة، ونرى أن العربية في أشدّ الحاجة إلى الغُيُر من أبنائها والعاملين على تعزيز مكانتها، ولطالما تساءلنا: أنموت قبل أن نرى العربية ترفل من جديد فيما كانت ترفل فيه قديمًا من حلل، حسدها عليها الدهر حتى بليت جدّتها وغاضت نضارتها؟ إنه الحلم الذي طالما تمنينا أن يصبح حقيقة.. وليت ذلك يكون.

أخي عاصم.. لقد سبقْتَني إلى رحمة ربك كما سبقتني قبلُ إلى كل مكرمة، وليس لي إلا أن أقول لك اليوم ما قاله أستاذي الشاعر أنور العطار يوم ودّع عالِم العربية الأستاذ سليم الجندي:

نم غير باكٍ على الفصحى وشيعتها فالله حرز لها والآي والسُّوَر

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.